الحسناء

الجزء السادس — المجلد الثاني

بيروت شهر كانون الاول سنة ١٩١٠

فلورنس نايتنكال

فرصة عظيمة عززت فتاة التمريض في السلم وفي الحرب وعظمت مقامه في عيون الناس . جاهدت بكل قواها في هذا السبيل ولم تبال بالتعب او تخشى العدوى . خدمت الانسانية كملاك سموي وامتازت بتخفيف الآلام ومواساة المرضى

ومع كل ذلك كانت من المدافعات عن حقوق السيدات ومن المطالبات بحق التصويت في الانتخابات

وهي بريطانية انكليزية . ولدت سنة ١٨٢٠ في احدى مدن ايطاليا ودعيت باسمها فلورنس . وكان ابوها وليم اديوارد شور غنياً عظيماً ورث امواله عن السر بطرس نيتنكال وتسمى باسمه . وكانت اسرتها مشهورة بالفضل والاحسان

فنزعت فلورنس على الفضائل . وعلمت ما وافق استعدادها حتى استطاعت ان تفيد العالم . وكان تعليم البنات في بلادها مقصراً فقط على المبادىء الاولية دون العلوم العالية ولكن والدها قد خالف هذه العادة واعتنى بتعليمها غاية الاعتناء

وكان فؤاد هذه الفتاة مشغوفاً بحب الخير مفطوراً على الاحسان ميالاً

خصوصاً الى مواساة المرضى بما فيه من الرأفة والحنان . ولذلك لم تزاول فن التمريض تحصيلاً للمال او اشغالاً لاوقات الفراغ بل مجاراة لميل طبيعي فيها دعمته التربية وعززه التعليم

فكانت في حداثتها تمرّض اللعب كانها بشر فتجعل نفسها بمثابة الطبيب والممرضة معاً فتمثل عدّ النبض وفحص الصدر وضمد الجرح وسقي الدواء . ثم تدرجت الى تمريض الحيوان . وبلغ من كثرة حنوها ولطفها ان صارت الحيوانات والطيور الداجنة تأنس بها وتدنو منها باطمئنان

عرفت مرة ان فلاحاً من مزارعي ابيها عازم على قتل كلبه لجرح اصابه ولا امل له بشفائه منه فتأثرت وبادرت حالاً الى الفلاح والدمع يتلألأ في عينيها وسألته بلطفها المعهود ان يتمهل لتمرض له الكلب لعله يشفى وبالنظر لبعد بيته عن منزلها كلفت فتيس كنيستها ان يرافقها اليه وهناك غسلت جرح المريض وضمدته . وعاودت عملها مرات الى ان شفي مريضها . والفضل في شفائه لها

ولما رأت من نفسها كل هذا الميل للتمريض وتأكدت شدة ما يقاسيه الاعلاء من الاوجاع عزمت على تعلم هذا الفن واتقانه جيداً توصلاً لغايتها النبيلة تخفيفاً لآلام المرضى وتوفيراً لحسنات الناس

فدرست ما يلزم لذلك حتى اللغتين اليونانية واللاتينية . وذهبت الى المانيا وفرنسا تتعمق في الفن علماً وعملاً . وساعدها الميل الى الموسيقى والاشغال اليدوية والمهارة فيها على الرشاقة والخفة في تضميد الجراح حتى ضرب بها المثل

ولولا قوة عظيمة في نفسها لما استطاعت الثبات في التمريض والنبوغ بالمواساة . لان هذا الفن كان محتقراً في عصرها ولم تكن تقدم عليه الا من

لا تستطيع الارتزاق من سواه . وذلك فضلاً عن رفعة مقامها بين قومها مع جمالها وغناها مما يبعث غالباً على الرفاهة والكسل . بيد ان النفوس العظيمة لا يثنيها عن عزمها شيء من هذا ولا يغرها مال او جمال

وهكذا لم تعبأ فلورنس بآراء معاصريها بل شرعت تمرّض الفقراء دون مبالاة . فعهدت اليها الحكومة امر مستشفاها فنظمت شؤونه مجاناً لوجه الله وربته احسن تربيب وكثيراً ما كانت تنفق عليه من مالها لتحسين احواله

ولما انشبت حرب القرم بين الروس والاتراك وساعدت انكلترا وفرنسا تركيا على روسيا . اخذت مس نيتنگال تتبع استطلاع اخبار الحرب وتهتم خصوصاً بما اختص منها بالجرحى فساءها اختلال احوالهم واثرت بها قلة العناية بهم وعدم تمريضهم فعزمت على الذهاب بنفسها الى ميادين القتال لتمرّض بانفسها من شراسة المتحاربين

وفيما هي تهم بذلك طرأت اليها الحكومة ذات الشيء تواردا بالخواطر وفوضتها بان تصحب معها عدداً وافراً من المرضات تتولى ادارتهن كما تشاء وان تهيء جميع اللوازم على نفقة وزارة الحربية . ولما كتبته لها الوزارة انها لم تجد سواها اهلاً لهذا العمل الخطير ولذلك تسألها (باستعطاف) ان تمد اليها يد المساعدة وتقبل ادارة المستشفى ولها السلطة المطلقة في تنفيذ ما تراه موافقاً للنجاح

فبادرت حالاً الى انتخاب مرضات مناسبات وبالجهد استطاعت جمع اكثر من ثلاثين . ولما اعدت كل احتياجاتها سافرت وياهن الى ساحات الحرب لمداواة الجرحى . والدهشة مستولية على الناس من هذا العمل شريفة غريبة . جميلة صبية ربيبة النعم اليفة الرخاء تغادر القصر بكل

الرياح الى حيث تضحى الاجساد وتباح الارواح . فتقحم اما كن القتال ولا تخاف الموت او تهتم بالتعب ؟ ان في هذا الاقدام وهذه الجرأة باعثاً كبيراً للعجب

ولما ضاق مستشفاها عن بقية الجرحى اضطرت الى استخدام الاكواخ واعتاضت عن الاسرة بالارض ولكنها كانت تجهد نفسها كثيراً في تخفيف آلام المصابين حتى رزحت تحت اثقال التعب والضعف واصابتها حمى خبيثة كادت تذهب بها

وقد بلغت اخبار مآثرها اسماع مواطنيها فمدوها بالمال وتزعوا بمداحها على اختلاف طبقاتهم ونظم شعراؤهم فيها القصائد الحسان وسموها الملاك المفرج ومعينة الانسانية وما اشبه من احسن الاسماء.

ولما عادت بعد انتهاء الحرب اهدى اليها السلطان عبد المجيد اسوارة مرصعاً بالالماس وقدمت لها الملكة فكتوريا حلية ثمينة ثم منحتها وسام الصليب. واكتتبت الامة الانكليزية بمبلغ خمسين الف ليرة لتشييد اثر يخلد ذكرها افتتوه على بناء مستشفى باسمها في لندن نصبوا تمثالاً لها فيه يمثلها وهي حاملة المصباح

فاقامت في هذا المستشفى وجعلت قسماً منه لتعليم التمريض . واسست جمعية الصليب الاحمر الانكليزية لمداواة جرحى الحروب وانشأت المستشفيات في لسبون واستراليا والهند وفي كثير من بلاد الانكليز

وما اكتفت بذلك بل الفت عدة كتب في فن التمريض زادتها شهرة وفضلاً . وكانت الحكومة الانكليزية تعتمد عليها في هذا الشأن دون سواها. ولما استعرت نيران الحرب الاهلية في اميركا كان الاميركيون يستشيرونها في ما يلزم لتمريض جرحاهم. وعند اتحارب الالمان والفرنسيس ساعدت جرحى تلك

الحرب مساعدة يذكرونها بالشكر والاجلال فقد كانت ثقة في فن التمريض يعوّل على ارائها فيه وتتخذ حجة لا يخالف رأيها

وقد عرف الانكليز فيها هذه المزية فكرموها غاية الاكرام وعدا عن المستشفى الذي شيدوه باسمها والمدال الذي ضربوه لها فيه فقد منحوها عضوية لندن وهذا غاية ما يطمعون فيه من الطيب الشرف والتم عليها الملك ادوارد بنشان مار يوحنا ووسام الاستحقاق وهي اول من نال هذه الوسام من الجانس اللطيف بل الوحيدة التي نالته الآن وهو من حين انشائه الى العام الماضي لم ينله الا تسعة عشر شخصاً فقط منهم ثلاث نساء . ويروى انه لما قدمت لها البراءة بعضوية لندن في عاشية حارت ان تبدل العلبة بغيرها من علب الخشب او ان يوزع ثمن علبة الذهب وهو مئة ليرة على الاعمال الخيرية

واحتفلوا بيوبيلها في هذا العام احتفالاً جميلاً لتجاوزها التسعين من عمرها كان الملك جورج من بينهم فيه وكانت رسالته بتهنئتها اول رسالة تهنئة كتبها بعد ارتقائه العرش الى والده اليه

على انها لم تعش بعد عيدها الاخير اكثر من ثلاثة اشهر وبضعة ايام اذ توفيت في ١٣ آب من هذا العام وكان لوفاتها رنة اسف شديدة في قلوب الناس رددتها جميع الامم . واحتفي بجثتها احتفاء عظيماً وصلي عليها في كنيسة ماربطرس باحتفال شائق حضره ملك وملكة انكلترا واعضاء الاسرة المالكة ونحو الف ممرضة وكان بعزمهم ان يدفنوها في وستمنستر مدفن عظماء الانكليز لولا وصيتها بان تدفن مع والديها في غير هذا المكان وكان في جنازتها نحو من مئة اكليل فاخر من الزهر منها اكليل ارسلته الملكة الكسندرا كتبت عليه ما معناه — تذكار عرفان الجميل الى اكبر محسنة للانسانية المثلة . مؤسسة فن تمريض جرحى الحرب ومعززته بسالتها